مطبوعات حديثة

« خطط الشام »

وضع هذا الكتاب القيم — في تاريخ الشام وعمرانها — الاستاذ البحاثة السيد محمد كرد علي ، رئيس المجمع العلمي العربي . وهو يقع في ستة اجزاء وكلامنا الآن على الجزء الاول منه .

ولما كان للتاريخ الاثر الاكبر في حياة الامم ، كان لابد لنا من كلمة موجزة نوطئ بها للكلام عن خطط الشام .

كان التاريخ اكثر مايكون مجموعة حوادث يتلقفها اصحابها على علاتها من غير تحقيق ولا تمحيص ، فيخرجونها بما فيها من اضطراب وضعف . ومبالغة وتناقض ، كتاباً ، ويسمونه تاريخاً .

ثم سمت همة المؤلفين الى نقد الحوادث ، وموازنة الروايات ، تمييزاً للصحيح من الفاسد . ولكن النقد والموازنة على مافيها من قيمة وفائدة في استخلاص الحقائق التاريخية ، ليسا بالغرض الذي يجب ان ينتهي عنده مطمح التاريخ . فلقد قال « ميشله » مامعناه . ان التاريخ الذي من شأنه ان ينشر الاعصر الخالية يجب ان يتقدمه بيان يعرب عن العوامل المختلفة التي كانت سبباً في الحوادث ونتائجها . وقبله قال العلامة ابن خلدون في حق بعض المؤرخين : « يجلبون الاخبار عن الدول صوراً قد تجردت عن مواردها ، وحوادث لم تعلم اصولها . . ثم اذا تعرضوا لذكر الدولة ، نسقوا اخبارها نسقاً ، لا يتعرضون لبدايتها ، ولا يذكرون السبب الذي رفع من رايتها ، واظهر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

من آيتها ، ولا علة الوقوف عندغايتها . فيبقى الناظر متطلعاً بعدالى افتقاد احوال مبادئ الدول ومراتبها ، مفتشاً عن اسباب تزاحمها وتعاقبها » .

فالتاريخ الحق اذن لاتكفي فيه الرواية المختارة ، بل هو كما قال « تيارس » يحتاج ايضاً الى تعليل ينظم الحوادث متسلسلة . بحيث يعرف كيف تتولد الحادثات من الحادثات . » وفائدة التعليل انه يسمو بالتاريخ عن ان يكون مجموعة احاديث لا نظام لها ، فيصيره علماً او مايقرب منه . يرجع معه بالحادث الخاص الى القواعد العامة ، على مافي سائر العلوم . ويستدل به على مايكون بما قد كان .

وثمة غرض آخر حقيق بالمؤرخ ان يتفطن له ، وهو ان يجعل من همه ان يكون كتابه موافقاً اول شيء ، لمصلحة الجماعة التي من اجلها وضع الكتاب .

هذه ثلاثة اغراض يجب على المؤرخ ان يجعلها مرماه .

١ — السند الصحيح ٢ — التعليل ٣ — موافقة الكتاب للروح التي تحتاج اليها الجماعة .

فهل عندنا نحن العرب في تاريخ الشام — على كثرة التواريخ — مايسد هذه الحاجة ؟ الجواب لا ! ذلك ان المؤرخين العرب اذا كان منهم من عاير الروايات فتخير ماراه جديراً بالاثبات فان اكثرهم كان تخيره ناقصاً ، عليه اثر من العصبية او المحاباة . اما التعليل فقد كاد يكون منقوداً بجملته . واما الموافقة للروح التي تحتاج اليها الامة ، فذلك مطلب يختلف باختلاف الازمنة . وقد كتب هؤلاء لغير هذا الزمن ، فتآليفهم من حيث الجملة لغير ابنائه .

فالاستاذ الرئيس اذا قيل انه كتب فيما كثر فيه التأليف ، فهو قد حاول في كتابه هذا ان يسد ثلمة في تاريخ الشام ، لذلك كان مسماه في محله . فهل وفق في عمله الى ماحاجتنا اليه ام لا ؟ .

ولا بد في معرفة ذلك من ان ننظر الى حظ هذا الكتاب من الاغراض الثلاثة التي نوهنا بها

١ — السند الصحيح : نظر المؤلف من اجل كتابه على ماقال في مقدمته ، في نحو من سبعمائة مؤلف من عربي وغيره ، فتخير من ذلك ماصح عنده ، ورضيه لكتابه . من الاخبار التي جاء بها الثقات من الرواة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقد اسند الكثير مما ذكره الى من نقل عنه توثيقاً للرواية . فجاء الكتاب من هذا الوجه نقي السند ، الا اشياء نسوق اليها حيانا العصبية ، او غيرها من المؤثرات ، مما سنشير الى بعضه في محله . وهذا الا يسلم منه مؤلف يكتب في التاريخ مهما بلغ من حياده .

٢ — التعليل : اما التعليل فقد كان له نصيب في هذا الكتاب ، ولكن اقل مما كان ينبغي ان يكون في مثله . فقد يسوق اليك نبأ دولة تسقط . واخرى تقوم . وثورة ينجم قرنها . وجيش تنهزم جموعه . فلا تجد لذلك تعليلاً يكشف لك عن حقيقة الاسباب . وهذا مانحن احوج ما نكون اليه .

٣ — موافقة الكتاب لحاجة الامة : اصبحنا اليوم في عصر القومية فيه هي الغالبة . واصبحت حياة الامة بان تتمسك بهذا المبدأ . فتقوية الروح القومية هي الطريق التي سلكها امم الغرب فبلغوا مابلغوه . فصار حقاً علينا ان نسير سيرتهم ، اذا اردنا ان نصل الى ما يوافقنا مما وصلوا اليه . ولهذا عوامل من اهمها التاريخ . والتاريخ العربي الى يومنا هذا خلو من كل شيء يمكن ان تشتم منه رائحة القومية . وهذا نقص كبير قد استدركه الاستاذ في كتابه ولا سيما في بحثيه الممتعين : « سكان الشام » و « لغات الشام » فقد خدم بذلك الامة والحقيقة جميعاً . فاثبت ما في هذا القطر من دم عربي صحيح ، وروح عربية مخلصة . حتى قبل الاسلام . وقد عزز كلامه هذا باقوال فريق من مؤرخي الشرق والغرب دفعاً لما عساه ان يرد عليه من متعصبة الشعوبية ، وان كنت لا اخاله مع ذلك يسلم منها .

اما بعض الاشياء التي انكرناها في هذا الكتاب ، ونحسب ان الذي اسالها على قلم الاستاذ انما هو الغلو في العصبية الاموية . ماننقله اليك :

قال في الصفحة الـ ١٦٧ « الخلاف بين الأمويين وخصومهم من العلويين مازال يقوى و يضعف ، وماهو الا خلاف سياسي نشأ من النزاع على الملك ، وليس من الدين في شيء . فليس اذاً من العقل ان تسلسل هذه الاحقاد في الامة وتفرق شيعاً وتطير بمظاهر النصب والتشيع . الى ان يقول « . . . ان مسألة الخلافة بين علي ومعاوية قد مضى عليها الزمن ، وكان لكل منهم اجتهاده ، وهي من المسائل المؤلمة في تاريخنا ينبغي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

لنا ان ندرسها بانصاف ، لا ان نبالغ فيما وقع ونتعصب لفريق على آخر ..»وهذا قول حكيم لاخلاف فيه . غير ان الاستاذ لايلبث ان يقول بعد اسطر معدودة :

« بنو امية اسسوا دولة عظيمة ،وفتحوا الفتوح ، ونشروا كلمة التوحيد،وبثوا اللغة العربية في الممالك التي دوخوها .»وهذا ايضاً كله حق ،ولكنه يتابع كلامه فيقول :

لماذا عمل خصومهم لو انصف المتشيعون لهم ؟ لم يوفقوا من قبل ولا من بعد الا ان يدلوا على الامة بشرفهم ،.. ولذلك كان من المعقول ان لا يُغَضَّ من قدر العاملين خصوصاً من كانت حسناتهم تربو على سيئاتهم ، ان كان هناك ما يتجوز في تسميته سيئات ! اضعافاً مضاعفة . الملك لايقوم بالزهد والتقوى ولزوم المساجد والخطب والحماسة والادلال بصفات طبيعية اتصف بها صاحبها . الملك يحتاج كما جرى الامويون الى بذل وتسامح وتماسك ، وعمل نافع ، بعيد عن الدعوى ما امكن . في الصفات الاولى، تمثل حالة العلويين ، وفي الثانية تمثل حالة الامويين » .

ان الانصاف الذي دعا اليه الاستاذ الرئيس ، والتعصب الذي حرمه في اول كلامه ، لاينطبق على ماجاء في ختامه من الدعاية والعصبية .

فنحن اذا كنا لانخالف الاستاذ فيما نسبه الى بني امية من الحسنات ، ونقر لمعاوية بان له على العرب فضلاً لاينازعه فيه منازع ، فلا نوافقه في ان الامويين قوم لزمتهم العصمة فلا تنسب اليهم السيئات الا على سبيل التجوز ؛ وان العلويين ليس لهم الا النسب يدلون به !

لقد تساءل الاستاذ عما عمل خصوم الامويين ! فنحن نقول له انهم اوجدوا الامويين ،وحسبهم هذا حسنة . نعم اذا كان بنو امية قد انشأوا دولة غراء هي احدى مفاخر العرب على الدهر ، فانهم كانوا ايضاً ملوك العرب وخلفاء الاسلام ، والملك والخلافة لم ينشئهما الامويون ، ولاهم الذين وضعوا اساسها . بل السابقون الاولون ، الحاملون امية على الاسلام بالسيف ،وفي طليعتهم علي بن ابي طالب « صاحب الحماسة والخطب ، والزهد ، والتقوى » .

لقد مضى الزمن الذي كان يجوز فيه لاحدنا ان يكون عباسياً ،او أموياً ، او علوياً . وان يتعصب لفريق على آخر . فمجد هذه الامة لايقوم بالعلويين وحدهم،ولا بالامويين

ولا بالعباسيين . ولكنه يقوم بهم جميعاً . بل ان حضارة بني العباس تلك الحضارة التي لاتزال تفخر بها ، لم يقم بها اصحابها لولا ما سبق من عمل بني امية في توطيد اركان هذا الملك ، ماجعل العباسيين يتفرغون لحضارتهم . و بنو أمية ماقاموا بما قاموا به لولا يد سبقت لعلي بن ابي طالب واقرانه .

ومما نحسب ان الاستاذ قد غالى به ايضاً ، قوله عن المأمون ص ١٨٨ « ولم تعد عليه غلطة سياسية ولامدنية » نعم ان المأمون خليفة منقطع النظير ، في كثير من الفضائل وجلائل الاعمال ، اما ان لاتعد عليه غلطة فهي دعوة لايقرها التاريخ . بل في الصفحة ال١٩٧ ما ينقض ذلك . فلقد جاء فيها . في ايام المأمون نشأت الدعوة الشعوبية ، وهل نشوء هذه الدعوة في ايامه ، وعجزه عن القضاء عليها ، او العمل على ذلك — في اقل مايكون — الا غلطة سياسية . سواء ابلغته فاغضى عنها ، ام خفيت عليه فجهل امرها .

وفي الكتاب ابيات من الشعر بعضها لاموضع له في التاريخ . والبعض الآخر ليس محله حيث استشهد به .

وفيه ايضاً عبارات تكررت بعينها في صفحات متقاربة . مما لاوجه له ، ولا فائدة منه . وهو يورد في بعض الاحيان اسماء اشخاص لاهم يعرفون عند الجمهور معرفة تامة ، ولا هو يذكرهم ذكراً كافياً .

هذا مارأيت التنبيه اليه ، مما عثرت عليه في هذا الكتاب . عرضته ليرى الاستاذ فيه رأيه . وهو لايقدح بشيء في قيمة هذا السفر الجليل الذي جمع بلغته الفصيحة ، وروايته الصحيحة ، بين الادب ، وتاريخ العرب . جزى الله الاستاذ على عمله خير الجزاء ، وهدى الامة الى مؤازرته ليخرج لها باقي الاجزاء .

عضو المجمع العلمي العربي
عارف النكدي